الرمز والعلامة والإشارة

المفاهيم والمجالات

الدكتور : كعوان محمد
المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة

تعالج هذه الدراسة الخلط المفاهيمي بين المصطلحات السيميائية – الرمز والعلامة والإشارة – فالتداخل بين هذه المصطلحات في الدراسات اللسانية والسيميائية وحتى النقدية جعل الباحثين في هذه الحقول المعرفية يقعون في إشكالات جمة يصعب معها رسم حدود متباينة بين هذه المصطلحات ، إضافة إلى كون بعض الدارسين يوظفون هذه المصطلحات أحيانا من باب الترادف ، فيعبرون عن الرمز بالعلامة والإشارة أيضا، والعكس صحيح ، وسنحاول جاهدين هنا تقديم حدود موضوعية لاشتغال هذه المصطلحات في الحقلين اللساني والسيميائي موضحين بذلك أهم العلاقات التي تحكمها .

تعرف اللسانيات بكونها ذلك العلم الذي يعني باللغة مكتوبة كانت أو منطوقة قديمة أو حديثة، وذلك لأجل دراستها والبحث عن قانون عام يجمعها، وقد أدت هذه الدراسات إلى تطور حقول لسانية كثيرة، همها الوحيد: هو البحث عن القوانين والأنظمة التي تساعدنا على فهم اللغة وتطورها.

وغرضنا هنا ليس إعطاء مفهوم للسانيات أو لفرع من فروعها، بقدر محاولتنا الإفادة من أهم الآراء التي تخص العلامات اللغوية باعتبارها رموزا إشارية، وما يجعلها على اختلاف مع الرموز الأدبية والفنية ، والتي نحن بصدد دراستها، وقد عرضنا على هذا الحقل محاولين بذلك استثمار ما توصلت إليه العلوم اللسانية من طروحات قد تفيدنا في بحثنا عن أنظمة اشتغال الرمز الأدبي ، ومدى تقاطعه وانزياحه عن الوظيفة التواصلية ، التي هي الوظيفة الأساسية للغة، كما أننا أثناء إيرادنا لأهم الآراء التي تخص العلامات اللغوية والرموز اعتبرنا أن السيميائية – علم العلامات، علم الرموز– هي فرع من علم اللغة العام، وبذلك نكون قد تبنينا رأي سوسير: والذي هو بخلاف رأي رولان بارط، ولذلك سنعرض بعض الآراء دون إشارة إلى الحقل الذي تنتمي إليه.

ومادامت اللسانيات بكل فروعها هي علوم تتقصى الدقة والمنهجية العلمية وتنأى عن التعابير الأدبية، فإننا سنحاول جاهدين الوقوف عند أهم الآراء التي تناولت العلامة اللغوية باعتبارها إشارة لسانية أو رمزا.

يرى ساندرس بييرس أن العلامة حسية أو غير حسية تنقسم إلى دوال ومداليل، والبنية الدلالية العلاماتية تحتوي على أربعة عناصر هي:

1- العلامة بوصفها ممثلا ينوب أو يحل محل شيء آخر.
2- المادة المشار إليها أو الموضوع.
3- المحلل، أي الشخص الذي يدرك ويعي الإشارة.
4- الطريقة المحددة التي تكتمل بها العملية الإشارية (وهي التي يسميها بييرس: الأرضية أو الأساس)[1].

كما حاول بييرس تصنيف العلامات وذلك بغية الوصول إلى وضع نظرية طبيعية تشمل جل العلامات الموجودة في الواقع، حيث ميز بين ثلاثة أنواع من العلامات: الرمز بالمعنى العام، والعلامة المشهدية أو الأيقونة، والدليل أو القرينة، كما أنه يعرف كلا منها استنادا إلى مفهوم المفسر، أي الأثر الذي تحدثه في السامع، فالرمز لدى بييرس هو " المعادل الحقيقي للعلامة عند سوسير، إذ يرى بييرس أن علاقة الرمز بمدلوله هي علاقة اعتباطية عرفية فقط "[2] ، إضافة إلى أن بييرس يعتبر الرمز بالمعنى العام**(Symbole)** " إشارة **(Signe)** أو علامة اصطلح عليها، ويقوم على الطابع التحكمي بين الدال والمدلول، ولذلك هو يقابله بالإيقونة أو العلامة المشهدية، والتي هي علامة غير تحكمية الاصطلاح "[3] فالعلاقة في العلامة الإيقونية **(Icon)** ، أو ما اصطلح عليه البعض بالعلامة المشهدية، أو المثل هي علاقة مشابهة، كما هو الحال في الخرائط والصور الفوتوغرافية، أما بالنسبة للدليل **(Indice)** والذي لد بدائل مصطلحية أخرى كالقرينة فإن العلاقة التي تحكمه هي علاقة سبب بنتيجة، كما في علاقة الدخان بالنار، أو سماع صوت من وراء جدار للدلالة على حياة صاحبه، أما الرمز باعتباره علامة فتتحكم في طرفيه علاقة عشوائية عرفية ،كما هي حال العلامة لدى سوسير.

إن الرمز لدى بييرس هو عبارة عن إشارة، وحاله كحال القرينة والإيقونة، إلا أنه يفقد خاصية الإشارة إذا لم يكن هناك مفسر، أما بالنسبة للقرينة فهي تفقد الطابع الذي يجعلها إشارة إذا لم يكن موضوعها موجودا، في حين لا تفقد هذه الميزة حتى إذا لم يوجد مفسر.

وقد تناول بييرس الإشارات اللغوية بالتعريف، حيث يقول: " العلامة أو المصورة **(Representament)** هي شيء ما ينوب لشخص ما عن شيء ما بصفة ما، أي أنها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة ، أو ربما علامة أكثر تطورا وهذه العلامة التي تخلقها أسميها مفسرة **(Interprétant)** للعلامة الأولى، إن العلامة تنوب عن شيء ما، وهذا موضوعها **(Object)** وهي لا تنوب عن هذا الموضوع من كل الوجهات، بل بالرجوع إلى نوع من الفكرة التي سميتها سابقا ركيزة **(Ground)** المصورة "[4] ويمكن التمثيل لما ذهب إليه بييرس بالشكل التالي:

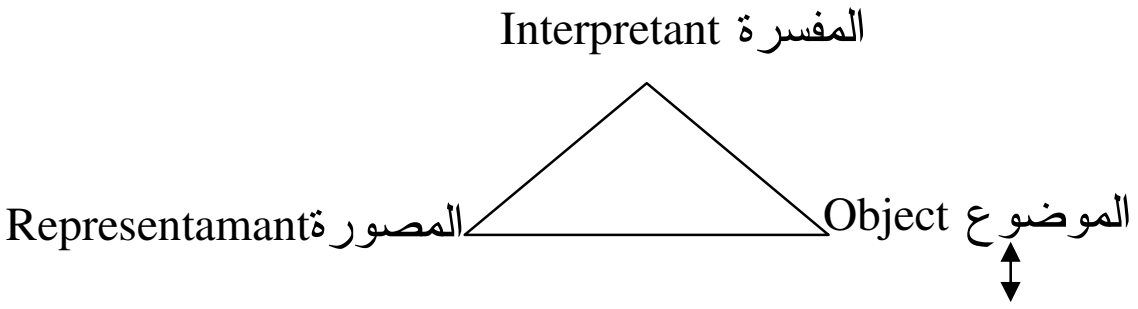

في حين يرى سوسير أن العلامة اللسانية " لا تربط شيئا باسم، بل تصورا بصورة سمعية، وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي الدافع النفسي لهذا الصوت "[5] ، ويمكن التمثيل لهذه العلاقة الاعتباطية بوجهي العملة الواحدة والتي لا يمكن فصل أحد وجهيها عن الآخر لأن ذلك سيؤدي حتما إلى تفريغ العلامة من محتواها وتجريدها من قيمتها ووظيفتها باعتبارها علامة دالة ويمثل سوسير لهذه العلاقة بهذا الشكل:

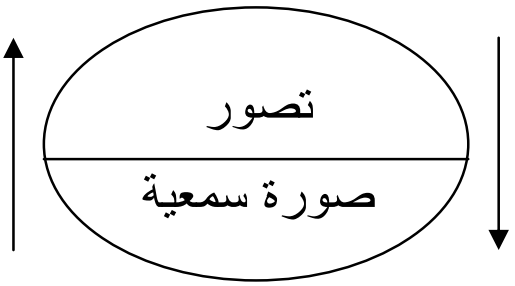

وقد استعار سوسير مصطلح الدال **(Signifiant)** ليعبر به عن الصورة السمعية والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالصورة الذهنية هذه الأخيرة أطلق عليها مصطلح المدلول **(Signifié)**.

والجدير بالذكر أن سوسير لم يستخدم كلمة الرمز اللغوي " لأن الأمر يتضمن علاقة بين داله ومدلوله من وجهة نظر سوسير، ولهذا فهو لا يعد العلاقة في الرمز اللغوي علاقة اعتباطية أو تعسفية، وإنما هي علاقة سببية"[6]. وقد استخدم سوسير كلمة رمز لتعيين العلامة الألسنية، والتي يسميها بالدال، كما أنه يشير إلى طبيعة العلاقة في الرمز والتي تختلف عن العلاقة في العلامة اللسانية، يقول: " إن للرمز صفة ليست هي بشكل عام اعتباطية أبدا، وهذا الرمز ليس بفارغ أيضا، إذ أن هناك بعضا من ملامح الرابط الطبيعي بين الدال والمدلول، ولا يمكن تبديل الميزان، وهو رمز العدالة بأي شيء آخر كالعربة مثلا"[7] ومن ثم فهو يستعمل مصطلح علامة أو إشارة.

وقد سجل علماء اللغة تردد سوسير أثناء بحثه عن تسمية للوحدة اللسانية حيث استبعد كلمة رمز، وتبنى كلمة علامة، وذلك لأنه كان يدرك جيدا أن الرمز ليس فارغا فهو يشير " إلى بقايا تعليلية تجعل من إحالة الدال على المدلول إحالة محكومة بمبدأ التعليل، في حين أن اللسان في جوهره ظاهرة اعتباطية " غير أن هذه الاعتباطية نسبية.

كما أن الرمز لا يمكن استبداله ونشر معطياته، فما اتفق عليه الناس باعتباره رمزا لشيء، كالميزان رمز العدالة، لا يمكن استبداله بأي شيء آخر[8].

والرمز بحسب سوسير بخلاف العلامة، فإذا كانت العلامة بإمكانها اكتساب دلالات متنوعة من خلال ورودها في سياقات متعددة فإن الرمز بدوره يشمل ويشير إلى سياقات ثقافية مبينة، وهذه الأخيرة كفيلة بخلق الرمز، أو نفي هذه الميزة عنه.

فالعلامات تشير إلى شيء ، أو إلى صورة ذهنية موجودة سلفا ، في حين يستمد الرمز دلالاته من ظلال العلامة.

فكما أن الغروب يشير إلى انقضاء النهار، فهو يشير أيضا انطلاقا من دلالته هذه إلى دلالة أخرى وهي الفناء، فالحياة شبيهة بالنهار والذي هو مصدر الحركة، وبزوغ نور

الفجر يشير إلى الولادة، وقد وظف الرومانسيون هذه الدلالات الرمزية لمظاهر الطبيعة في نصوصهم الشعرية، واستثمروا مواطن الإيحاء فيها حتى غدت الطبيعة لديهم بكل مظاهرها رموزا لما تخفيه الذات الإنسانية من مشاعر مرهفة ، وتعلق بالأمل ، وحنين إلى الانطلاق .

ولا نملك نحن القول بابتكار الرومنسيين لهذه الرؤية الوجودية ، لأن ذلك يرتبط بطقوس موغلة في القدم، ومن تلك الدلالات القديمة لمظاهر الطبيعة استمدت كثير من الرموز كينونتها، فالنور يشير إلى المعرفة والبياض إلى النقاء، والحمامة البيضاء إلى السلام، فالرمز من هذه الزاوية شيء محسوس له وجود في ذاته بعيدا عن أية دلالة، ومن جهة أخرى فهو مرتبط بالثقافة، أي بالمفاهيم والطقوس التي تعارف الناس عليها ، عن طريق الاتفاق والتواضع، وهذه أشياء مرتبطة بالحالات النفسية التي تنتاب الكائن البشري.

والرمز يحيل على موضوعه استنادا إلى قانون، وهذا ما ذهب إليه بييرس أيضا ، فهو ينحدر من طبيعة عامة ومجردة " إنه ينتمي إلى مقولة الثالثانية، والثالثانية في تصور [بييرس] هي مقولة الفكر والضرورة والقانون الذي يحكم الوقائع استقبالا، ومن خلال وضعه هذا فإنه لا يستند إلى حدث ولا إلى نوعيات ، أو أحاسيس لكي يوجد، بل يكتفي بالإشارة إلى القانون والضرورة التي بموجبهما يحيل شيئا ما على شيء آخر "[9].

ومن هنا أقر بييرس بأن العلاقة القائمة بين الماثول الرمزي (الإيقونة الرمزية) وموضوعها لا يستند إلى التشابه ولا إلى التجاور، بل إلى العرف الاجتماعي الذي هو قاعدة وقانون في الآن نفسه.

ولهذا يعمد الكائن البشري إلى اختيار رموزه استنادا إلى قاعدة عرفية، بعيدة كل البعد عن المنطق والاستدلال العقلي، فالإنسان يعمد إلى الرمز من أجل التعبير عن مجموعة من القيم بطريقة الإيحاء والتمثيل، فهو أداة حاسمة في تنظيم التجربة الإنسانية، وذلك لأجل جعلها تجربة عامة ومشتركة بين جميع الأمم.

يعتقد ياكبسون أن نظرية اعتباطية الدليل اللساني " ليست لسوسير، بل نجدها عند اليونان ولاسيما أفلاطون وديموقريطس ومن بعدهما الرواقيون الذين رأوا أن الاتفاق أو الصدفة أنتجا أسماء الأشياء "[10] أما كلود ليفي شتراوس فقد فحص مبدأ الاعتباطية وقرر

" أن الرمز اللغوي إذا كان اعتباطيا مسبقا فإنه لا يظل كذلك مؤخرا... ومن هنا فإن الخاصية التعسفية للرمز اللغوي تعتبر مؤقتة، إذ أنه طالما خلق الرمز فإن ما يستثيره يصبح شيئا محددا دقيقا للبنية الطبيعية للذهن من ناحية، ولعلاقته بمجموعة الرموز الأخرى، أي علم اللغة الذي يكون نظاما متماسكا من ناحية أخرى "[11]

وقد نبه سوسير إلى خضوع الدليل للاعتباط النسبي والاعتباط المطلق باعتبار وجود كلمات في اللغة توحي بمعناها، وهي المعبر عنها في نظرية المحاكاة بكلمات المحاكية للأصوات الموجودة في الطبيعة ، ولكن حضورها في المعجم قليل جدا.

في حين يرى كل من ريتشاردز وأوقدن **(Richards et Ogden)** في كتابهما:" معنى المعنى " **(The Meaning of meaning)** الصادر سنة 1923، أن الرمز مرادف للكلمة والاسم، وقد أشارا إلى ذلك في مثلثهما الشهير، حيث جاءت هذه المصطلحات في ركن واحد **(Symbol- word- Name)** كما اعتبرا أيضا العلاقة بين الرمز وما يشير إليه علاقة سببية، وهي العلاقة نفسها التي تحكم المدلول بالشيء الخارجي، أو المشار إليه[12] ، والكلمات بالنسبة لهما ما هي سوى رموز تؤدي بها ما في أنفسنا، بل هي " رموز ناقصة لا يستطيع الإنسان أن يضبط مدلولاتها أو يحددها ، إلا ما اتصل منها بالأعلام وأسماء الأماكن، أما ما يتصل منها بالمعنويات والعواطف فإنه غير مضبوط ولا محدود... وما يزال الكتاب يبحث بحثا واسعا طريفا في صعوبة اللغة وصعوبة التعبير بها وتكثيف الألفاظ من تحوير في استعمالاتها المختلفة عند الأدباء... ومن أجل ذلك كانوا يحرفون في مدلولاتها تحريفا واسعا حتى يستطيعوا أن يعبروا عن المعاني التي تختلج في نفوسهم، وهي معان أوسع من تلك الأدوات اللغوية التي اصطلحنا عليها "[13] .

أما إميل بنفنيست **(E.Benvenist)** فيرى في مقال له بعنوان " طبيعة الرمز اللغوي " وذلك سنة 1930 بأن " العلاقة بين الدال والمدلول ضرورية لتكوين الرمز فبنفنيست ينكر العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، إذ لا يقع الاعتباط بينهما، بل بين الرمز (العلامة) بحديه: الدال والمدلول من جهة، وما يشير غليه من أشياء وأفكار من جهة أخرى "، وقد أوضح إيلوار **(R.Eluerd)** ما قصده بنفنيست في الشكل التالي[14] :

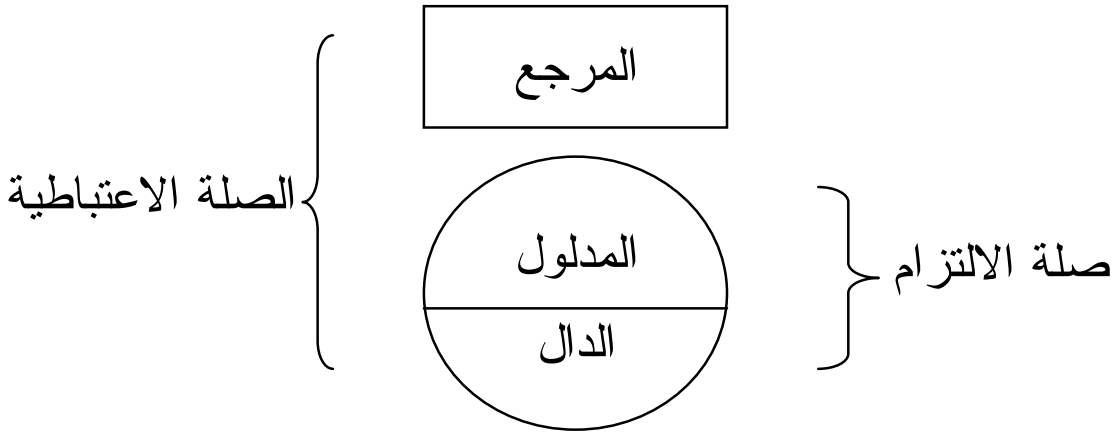

وهذا الشكل يعبر عن اعتباطية العلامة اللسانية، كما أن الكلمة لا ترمز إلى الشيء ولا تصوره، فهي ليست مطابقة له، فاللغة بحسب ما ذهب إليه إيلوار في تعليقه على رأي بنفنيست لا تطابق العالم الخارجي، هذا الأخير الذي أشار إليه بمصطلح المرجع، حيث يرتبط بالعلامة اللسانية برابط عشوائي متواضع عليه.

وقد أشار إلى هذه القضية جاكبسون وذلك حينما جعل الدال مميزا للمدلول ، إذ اعتبر العلاقة بينهما ضرورية، وهو الشيء نفسه الذي ذهب إليه بنفنيست.

أما ستيفان أولمان (**S.Ullman**) فقد اختار مصطلح " اللفظ بدلا من رمز أو دال، ومدلول بدلا من فكرة أو ارتباط ذهني، واللفظ عنده هو الصيغة الخارجية للكلمة، في حين أن المدلول هو الفكرة التي يستدعيها اللفظ "[15] ، وللإشارة فإن أولمان اعتمد على مثلث ريشاردز وأوقدن في تعريفه للمعنى إلا أنه خالفهما فيما ذهبا إليه، فقد أشار إلى العلاقة المتبادلة بين اللفظ ومدلوله،باعتبار أن كل واحد منهما يستدعي الآخر ، كما أنه أهمل الجانب الثالث من المثلث وهو المرجع، وذهب إلى القول بصدد ذلك :بأن دارس اللغة لا تهمه الأشياء بقدر ما تهمه الكلمات[16] ، ويمكن التمثيل لرأي أولمان بهذا الشكل:

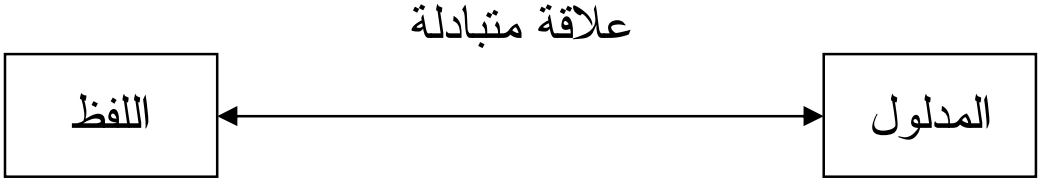

ومن خلال تعدد المصطلحات التي وردت بخصوص الدال والمدلول والمرجع والموجودات الخارجية، وكذلك العلاقات التي تحكم طرفي العلامة اللسانية، أو أطراف

العلامة اللسانية باعتبار مثلث ريشاردز، وكذا ثلاثية بييرس وبنفنيست، فإننا يمكن أن نعتبر المصورة والرمز عند بييرس وريشارذز على الترتيب بمثابة الدال عند سوسير واللفظ عند أولمان، أما المفسرة والفكرة فلهما المعنى نفسه لدى كل من بييرس وريشاردز، أما بنفنيست فقد جعل المرجع مقابلا للرمز، في حين نجد أولمان يساير سوسير في تسمية الركن الثاني من العلامة اللغوية بالمدلول، أما الركن الثالث من العلامة لدى بييرس فهو الموضوع، في حين يسميه ريشارذز بالمشار إليه.

أما بخصوص العلاقات التي تحكم تلك الأطراف المشكلة للعلامة اللسانية فهي مختلفة، وذلك راجع للتصور الخاص بالعملية التواصلية والتي تختلف من عالم لآخر.

إن مصطلح رمز قد ورد لدى علماء اللغة نظيرا للكلمة أو العلامة اللغوية والإشارة أو الدليل أيضا، رغم أن هذه المصطلحات متباينة في مفاهيمها ، ولعل من بين الأسباب التي أدت إلى هذا الخلط المصطلحي الاعتقاد الذي مفاده أن ما أشار إليه كل من بييرس وسوسير بخصوص العلامة اللسانية هو نفسه، فإذا كان سوسير يفرق بين الإشارة والرمز فلأنه كان شديد الحرص على كون اللغة نظام من الإشارات الدالة، أما بييرس فيرى بأن اللغة نظام من الرموز.

أما في الحقل العربي فقد ترجمت تلك المصطلحات، وقد بدأ الخلط واضحا بخصوصها، حيث يذكر شرشار عبد القادر في مقال له بعنوان: " اضطراب المصطلح في الدراسات الأدبية والنقدية " أن السبب يكمن في تعدد المقابلات العربية للمصطلح الأجنبي الواحد، كما يشير إلى الاختلافات الحاصلة في ترجمة هذه المصطلحات في قوله: " **Signifié Signe**،**Symbole**، **Signifiant** " فالمصطلح الأول والثاني من الأسرة الاشتقاقية نفسها، لكن سوسير عندما تحدث عن " **Signe** " بين أنه يختلف جذريا عن " **Symbole**" فالأول اعتباطي والثاني ليس كذلك لوجود نوع من العلاقة بين الدال والمدلول، في حين أن لا علاقة في الأول، فالاضطراب أن تكون ترجمة (**Symbole**) بالرمز، وأن تترجم (**Signe**) بدليل، مما يشكل عائقا في الفهم، لأن ترجمة اللفظ بالمادة المعجمية نفسها التي اشتق منها أفضل وأصوب "[17] .

ومن ثم فالاختلاف في ترجمة المصطلح الغربي أصبح سنة لدى الدارسين العرب المعاصرين، بل إن مجرد تعدد المصطلح يعد زينة ومفخرة لديهم، فخلق بديل اصطلاحي

جديد، أو محاولة خلط بعض المفاهيم المتعارف عليها والمتفق بشأنها، يعد تجاوزا وتجديدا في هذا الحقل، ولكن المتفق بشأنه أن الرمز بخلاف الإشارة، هذا في العرف اللغوي، والشأن نفسه ويزيد في العرف الاصطلاحي، إذ لا وجود للتطابق التام بين المصطلحين، خاصة إذا ما كان الرمز بمفهومه الفني والأدبي الخالص.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى أن اللسانيين قد اقتربوا في حالات كثيرة أثناء مقاربتهم للرمز اللغوي من مفهوم الرمز الأدبي، وذلك راجع إلى الخلط المفهومي والإجرائي الذي انطلقوا منه، فستيفان أولمان على سبيل الحصر يعتبر الرمز وسيلة للاتصال والتفاهم بين الناس، أي أنه يقر بالوظيفة التواصلية للغة باعتبارها نظاما من العلامات الدالة.

إلا أنه يشير في أحايين أخرى إلى مفاهيم جديدة للرمز حينما يعتبره شيئا ينوب عن شيء آخر في الدلالة عليه، وذلك في قوله: " ومن الممكن أن تثير هذه الرموز خليطا من إحساسات شتى... ومن وجهة نظر أخرى أن الرموز إما طبيعية أو تقليدية عرفية، فالرموز الطبيعية لها نوع من الصلة الذاتية بالشيء الذي ترمز إليه، ومن ذلك أن بعض الحركات الجسمية تعد وصفا للحالات العقلية التي تعكسها... وكذلك يعد الصليب رمزا طبيعيا للمسيحية ولكن هذا ليس راجعا إلى أي مغزى تشبيهي، أو هو لم يكن في الأصل كذلك، وإنما سببه المغزى الذي تركه صلب المسيح عن طريق إيحاءاته التاريخية... "[18] .

فالإيحاء ليس سمة للعلامة اللغوية، وإنما هو سمة للرمز الأدبي، ونحن نرى بأن أولمان هو من بين أكثر اللسانيين إثراء لحقل اللسانيات والدلالة ، وفهما لطبيعة الرمز الإيحائية، فهو يشير في أكثر من موضع في كتابه: "دور الكلمة في اللغة" ، إلى دور الاستعمال المجازي في تعدد دلالات الرمز، حيث يرى : بأن " شحنة المعنى التي تحملها بعض الكلمات شحنة تدعو إلى الدهشة حقا "[19] لأنها معاني إيحائية وليست معجمية، كما يضيف أيضا إلى أن هناك مصادر مألوفة من المصادر التي تثير في النفس إحساسات خاصة بما تمدنا به من " ألوان أو ظلال معنوية إضافية ، ويتمثل هذا المصدر في قوة الكلمات على الاستدعاء، فالملاحظ أن وقوع الكلمات في نماذج معينة من السياقات يكسبها جدا خاصا ويحيطها بملابسات تعين في الحال على استظهار البيئة التي تنتمي إليها هذه الكلمات "[20] فالظلال المعنوية والأحاسيس التي تثيرها بعض الكلمات فينا أصلها الإيحاء

الرمزي، هذا الأخير يسيطر على جزء كبير من لغتنا اليومية، حيث تغدو لغة مجازية وظيفتها الاقتصاد في التعابير، والإيجاز من خلال التلميح فقط.

– الرمز والإشارة:

إن تداخل مفهومي الرمز والإشارة أدى بالدارسين إلى الخلط بين المصطلحين وإذا كان حقل اللسانيات أقرب إلى فرضيات العلم ، فإنه لم ينج هو أيضا من هذا التعميم المفهومي، فقد كان تعامل النقاد واللغويين مع مصطلح الرمز تعاملا سطحيا، إذ ناب عن مصطلح الإشارة في معظم بحوثهم، وقد برر صلاح فضل توظيفه للرمز نيابة عن الإشارة بقوله: " يكفي الآن أن نشير إلى أننا عندما نطلق كلمة الرمز على العلامة اللغوية، فإن هذا من قبيل تبسيط الأشياء، قبل أن نعمد إلى التصنيفات والتفريعات "[21] وهذا مسوغ مرفوض في الأعراف العلمية، لأن لكل مصطلح مجالا دلاليا مقيدا يجب أن يلتزمه ولا يحيد عنه ، فهو يدخل ضمن دائرة العلوم اللغوية، التي تشير إلى الأشياء بمصطلحات محددة ودقيقة، بعيدا عن المعاني الأساسية (المعجمية).

فإذا كانت العلاقة الكائنة بين الرمز – باعتباره إشارة لغوية – ومدلوله علاقة اعتباطية أو تعسفية، فإنه في حال الاصطلاح على خلاف ذلك، لأن المجتمع هو الذي ربط بين الطرفين لوجود علاقة ما بينهما، وهذه العلاقة قد يكون الإيحاء سببا في وجودها، وقد تكون مبررة أيضا.

يرى إرنست كاسيرر أنه ثمة فرق بين الرمز والإشارة ، إذ يعتبر الإشارة جزءا من عالم الوجود المادي، في حين يعتبر الرمز جزءا من عالم المعنى الإنساني " والإشارة مرتبطة بالشيء الذي تشير إليه على نحو ثابت، وكل إشارة واحدة ملموسة تشير إلى شيء واحد معين، أما الرمز فعام الانطباق، أي يوحي بأكثر من شيء واحد ، وهو متحرك ومتنقل ومتنوع "[22] .

إن هذا الرأي يبين مدى تباين اختلاف طبيعتي الرمز والإشارة، فالإشارة تنحصر في إطار محدود لا يتغير، إذ يعبر بها الفهم دون أن يلحظها باعتبارها خالية من المعنى وآلية، في حين ينفتح الرمز على فاعلية التغير والتجدد والشمول فقد تتعدد مدلولات الرمز بتعدد السياقات التي يرد فيها، وبالتالي فهو أوسع من الإشارة في التعبير والإيحاء، لذلك جعله الشعراء قناعا يختفون وراء إبهامه وتعدد مدلولاته.

كما أن الرمز يتميز بصلاحيته للاستعمال إذ تلعب العوامل النفسية وسياق الموقف دورا هاما في تحديد دلالته، إضافة إلى كونه يشمل كل أنواع المجاز المرسل والتشبيه والاستعارة والكناية، أما الإشارة فليس فيها سوى دلالة واحدة لا تقبل التوزيع ، ولا يمكن أن تختلف من شخص لآخر مادام المجتمع قد تواضع عليها[23] .

كما ذهب فرويد في شرحه لطبيعة الرمز إلى حد التفريق بينه وبين الإشارة وذلك أن الإشارة " تعبير عن شيء معروف ومعالمه محددة بوضوح، فالملابس الخاصة بموظفي القطارات إشارة وليست رمزا، إذ الرمز أفضل طريقة للإفضاء بما لا يمكن التعبير عنه، وهو معين لا ينضب للغموض والإيحاء، ومصدر خصب من مصادر التأويل "[24] ، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقل الإنساني، فهو أداة ذهنية ، أو مظهر لفعالية العقل البشري، في حين الإشارات مجرد أداة أو وسيلة لخدمة الفعل، حيث تختلف الإشارات عن الرموز اختلافا جذريا لكون الإشارة تفهم متى استخدمت للدلالة على موضوع محدد، أما الرمز " فإنه يفهم متى جعلنا نتصور الفكرة التي يقدمها"[25] .

ونظرا لكون التصورات متفاوتة ومتباينة من شخص لآخر، فإن جمالية الرمز تكمن في مدى الاختلاف الذي يحدثه في عقول السامعين.

وقد ذهبت أميرة حلمي إلى القول بأن الرموز غير الفنية أو الإشارات على حد اصطلاحها هي لغة اتفاقية شأنها شأن الأعداد والأسماء، في حين تتميز الرموز الفنية " بأنها لا يمكن أن تستبدل بغيرها ويبقى المعنى والتعبير، ذلك أن العمل الفني وحدة عضوية تستمد من علاقة الرمز بمدلوله، علاقة عضوية لا تفرض عليه من الخارج، أو بالاصطناع وإلا تحول الرمز الفني الأصيل أو العمل الفني كله على العموم إلى إشارات مصطنعة تضعف من العمل الفني ومن أصالته "[26] فالإشارات بدلالتها الوضعية المتعارف عليها تحيل على عالم الوجود المادي، أما الرمز فمرتبط بعالم المعنى الإنساني، لذلك لا يمكن أن يستبدل، لأن إحلال لفظ آخر محله يؤدي بالضرورة إلى تغير وظيفته الدلالية، فالرمز دال بطبعه، فهو ذو سمة وقيمة وظيفيتين، كما أن الرمز الفني لا يشير إلى شيء خارجه وذلك على العكس من غيره من الرموز " فالوجدان الذي يعبر عنه العمل الفني لا ينفصل عنه إذ أنه باطن في صميمه، وليس خارجا عنه "[27] .

إن ما ذهب إليه كاسيرر في تفرقته بين الرمز والإشارة هو القاعدة التي استلهمها كثير من الفلاسفة الغربيين، وعلى رأسهم سوزان لانجر.

أما في الحقل البلاغي العربي فقد كثر الحديث عن علاقة الرمز بالإشارة، ولعل ما قاله المصري عن الرمز والإيحاء يشفي تساؤلاتنا، إذ يقول عن الرمز: " فحواه أن يريد المتكلم إخفاء أمر ما في كلامه مع إرادته إفهام المخاطب ما أخفاه ، فيرمز له في ضمنه رمزا يهتدي به إلى طريق استخراج ما أخفاه من كلامه ، والفرق بينه وبين الوحي والإشارة أن المتكلم في باب الوحي والإشارة لا يودع كلامه شيئا يستدل عنه على ما أخفاه ، لا بطريق الرمز ولا غيره بل يوحي مراده وحيا خفيا لا يكاد يعرفه إلا أحذق الناس، فخفاء الوحي والإشارة أخفى من خفاء الرمز والإيحاء، والفرق بينه وبين الإلغاز أن الإلغاز لابد فيه ما يدل على المعمّى فيه بذكر بعض أوصافه المشتركة بينه وبين غيره وأسمائه فهو أظهر من باب الرمز "[28].

وهذا الكلام يتعارض تماما مع المفاهيم المعاصرة للرمز، فإذا كانت الإشارة أخفى من الرمز في الدلالة، فمعنى ذلك أن الإشارة بحسب فهم (المصري) لها ليست هي نفسها الإشارة بمفهومها الاصطلاحي المتداول اليوم في حقل اللسانيات والأدب، فالإشارة انطلاقا من معناها اللغوي تشير أي تدل وتوحي، وهي بعكس الإلغاز والرمز ، لأن الدلالة فيهما متضمنة عن طريق الإيحاء.

ومن الحالات التي ورد فيها مفهوم الرمز مرادفا لمفهوم الإشارة ما جاء في القرآن الكريم في سورة آل عمران: " قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا " [41/3] .

وهذا المعنى تكرر بطريقة مباشرة في القرآن في قوله تعالى: في سورة مريم:" فأشارت إليه " [29/19].

أي أومأت إليه، فالإشارة لا تحتمل معنى الرمز هنا من الناحية الاصطلاحية، إلا أنها توافقه من الناحية المعجمية.

وإن عدنا إلى نقدنا العربي القديم فإننا نلافي تداخلا كبيرا بين المفهومين، والسبب في ذلك يعود إلى الترادف الحاصل بين اللفظين في المعاجم العربية القديمة.

فقدامة بن جعفر كغيره من العرب المتقدمين يخلط بين المفهومين حيث يسقط ما للرمز من خصوصيات على الإشارة لتحل محله في الدلالة، يقول الإشارة " أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها، أو سمة تدل عليها ،كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة، فقال: هي سمة دالة "[29] .

أما ابن رشيق صاحب العمدة، فقد ربط مفهوم الإشارة بالإيجاز في قوله: "وهي في كل نوع من الكلام سمة دالة، واختصار، وتلويح، يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه "[30] .

كما أنه ذكر للإشارة أنواعا من بينها: (الرمز) ، والسر في ذلك أن ابن رشيق "لا يرى الرمز مرادفا للإشارة الحسية، كما هو الغالب على ما ورد في المعجمات، وإنما يرى أن أصله الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم، وأنه استعمل حتى صار الإشارة ، أو نوعا منها، وهو الإشارة بالشفتين، خاصة على رأي الفراء، ومن أجل ذلك جعل الرمز الأدبي نوعا من أنواع الإشارة الأدبية، لا مرادفا لها، ملاحظا جانب الخفاء والغموض في ذلك النوع "[31] .

أما الجاحظ فيرى بأن الرمز أو الإشارة هما طريقان من طرق الدلالة ، لأنهما إن صحبا الكلام فإنهما يفصحان ويبينان ما يريده المتكلم، لأن حسن الإشارة باليد، أو الرأس ، من تمام حسن البيان[32] ، كما يعتبر الجاحظ أول من أطنب في الكلام عن الإشارة من أدباء العرب، وتمتاز دلالة الإشارة بما يأتي:

1- إنها سريعة قصيرة

2- إنها غير مباشرة لا تفصح عن المراد إفصاحا مباشرا لأن الإفصاح المباشر عادة لا يكون إلا بطريق الدلالة اللفظية بحسب ما تدل عليه الألفاظ من معانيها اللغوية الوضعية

3- إنها خفية، وتلك الخاصية الأخيرة نتيجة للخاصتين السابقتين فهي لسرعتها وقصرها لا يفهمها إلا من يفطن إليها، ويكون ذهنه مهيأ لها، هذا والدلالة غير المباشرة بطبيعتها أقل وضوحا من الدلالة المباشرة "[33] .

وقد وظف الجاحظ مصطلحي الإشارة والرمز توظيفا لغويا، حيث اعتبرهما مترادفين، فوظيفتهما دلالية بحته، والمغزى منهما الفصاحة والبيان، فإن كانا متلازمين مع الكـــلام، أدى ذلك إلى حسن البيان.

كما أشار أيضا كل من كامل المهندس ومجدي وهبة إلى الاختلاف الاصطلاحي الذي يميز الرمز عن الإشارة فالرمز يتميز بصلاحيته للاستعمال، حيث تلعب العوامل النفسية دورا في تحديد دلالته، إضافة إلى سياق الموقف الذي يؤثر هو الآخر في إكساب الرمـــز دلالة تستجيب لحاجة الرامز الدلالية " فهو يشمل كل أنواع المجـــاز المرســـل والتشـــبيه والاستعارة بما فيه من علاقات دلالية معقدة بين الأشياء بعضها ببعض "[34] .

أما الفرق بين الإشارة والرمز فيكمن في أن " الإشارة ليس فيها سوى دلالة واحدة لا تقبل التوزيع ولا يمكن أن تختلف من شخص لآخر مادام المجتمع قد تواضع على دلالتها "[35] غير أن الرمز والإشارة متلازمان في أغلب الأحيان، حيث يمكن الحصول على إشارة رمزية أو رمز إشاري، وقد أشار بييرس إلى هذه العلاقات حينمـــا تطـــرق للعلامـــات باعتبارها أنظمة سيميائية.

واللغات القديمة التي اندثرت يمكن اعتبارها إشارات اصطلاحية كما هو الحال فـــي اللغة الهيروغليفلية أو المسمارية، حيث يمكن تجميعها وتفكيكها، ومن ثم فـــك شـــفراتها، انطلاقا من معرفة جوانب الاصطلاح فيها.

ويمكننا أن نظيف في ختام هذا البحث إلى أن مفاهيم هذه المصطلحات قد تتغير بتغير الحقل المعرفي الذي تثار فيه، فقد اكتسب الرمز مفاهيم عديدة في حقول معرفية متباينـــة كالبلاغة وعلم النفس والرياضيات والتنجيم واللسانيات .. بل إن التصوف قد أثار قضية هي غاية في الأهمية وتتعلق بالإشارة والعبارة والرمز ، وعلاقة كل ذلك بتلقي المعارف الربانية ، وهذا شأن يحتاج إلى دراسة مستقلة أخرى .

مراجع الدراسة :

[1] - سعد البازعي, ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي, المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط2 ، 2000 ، ص 108.
[2]- دليل الناقد الأدبي , ص 109.
[3] - عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب, منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق, 1980, سورية, ص 125.
[4] - حسن ناظم : مفاهيم الشعرية, دراسة مقارنة في الأصول والمفاهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1994 ، ص 62.
[5] - فردينان دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة, ترجمة يوسف غازي, مجيد النصر, المؤسسة الجزائرية للطباعة, الجزائر, 1986, ص 88.
[6] - حسن ناظم: مفاهيم الشعرية, دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم, الهامش, ص 76.
[7] - محاضرات في الألسنية العامة, ص 90, 91.
[8]- إن مبدأ التعليل الذي نحتكم إليه في مقاربتنا للرمز يبقى نسبيا ، وذلك نظرا لخضوع الرمز للثقافة المحلية ، وهذا سبب في تعدد الرموز الخاصة بمفهوم واحد ، فإذا كان اللون الأبيض رمزا للسلام ، فإننا نشير إلى السلام بغصن الزيتون أيضا ، وربما يكمن الرمز في الحمامة البيضاء في لونها فقط ، في حين هناك من يرى في الحمامة باعتبارها كائنا مسالما ، ووديعا رمزا .
[9] - سعيد بنكراد : الرمز -المجالات والدلالات - ، شبكة الأنثرنيث ، موقع : www. Saidbengrad.Free. fr
[10] - حسن ناظم: مفاهيم الشعرية, دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم, ص 56.
[11] - مفاهيم الشعرية, ص 57.
[12] - أنظر: أحمد مختار عمر: علم الدلالة, عالم الكتب, القاهرة, ط3, 1992, ص 54, 56.
[13] - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي, دار المعارف, ط12, ص 242.
[14] - أنظر: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات, دار الفكر, دمشق, سورية, دار الفكر المعاصر, بيروت, لبنان, ط1 1996, ص 289, 290.
[15] - أنظر ستيفان أولمان: دور الكلمة في اللغة, ترجمة: كمال بشر, مكتبة الشباب, القاهرة, مصر, ط2, 1969، ص64.
[16] - أنظر: مبادئ اللسانيات, ص 290, 291.
[17] - شرشار (عبد القادر): اضطراب المصطلح في الدراسات الأدبية والنقدية, مجلة الموقف الأدبي, (شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق, سوريا) ع 377, أيلول 2002, ص 70.
[18] - ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة, ص 27.
[19] - دور الكلمة في اللغة, ص 117.
[20] - دور الكلمة في اللغة , ص 94.
[21] - صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي, مهرجان القراءة للجميع, مصر, 2003, ص 29.

[22] - أمية حمدان حمدان: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني, منشورات وزارة الثقافة والإعلام, دار الرشيد للنشر, العراق, 1981, ص 25/ 26.
[23] - ينظر: مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب, مكتبة لبنان ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1984 ، ص181.
[24] - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب , ص 261.
[25] - الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيرر, ص 160.
[26]- أميرة حلمي: مقدمة في علم الجمال, دار النهضة العربية, 1972, ص 48/ 50.
[27] الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيرر, ص 211.
28 - المصري (بن أبي الأصبع) : بديع القرآن ، تح : حفني محمد شرف ، بغداد ، 1977 ، ص 321
[29] - قدامة بن جعفر : نقد الشعر, تح : كمال مصطفى ، القاهرة ، 1963 ، ص 90.
[30] - ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده , ج1, ص 206.
[31] - درويش الجندي, مرجع سابق ، ص 46.
[32] - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين ، تح : عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، 1948 , ج1, ص 70.
[33] - درويش الجندي: الرمزية في الأدب العربي, ص 41.
[34]- W.Y. Tindalle.: the literary symbol . نقلا عن محمد فتوح أحمد : الرمز في القصيدة الحديثة ، مقال بمجلة علامات في النقد ، ج34 ، مج9 ، ديسمبر 1999 , ص 181.
[35] - نفسه, ص 181.